المحاضرة السادسة الحكاية: على لسان الحيوان (كليلة ودمنة)

1. مفهوم القصة على لسان الحيوان:

تعد القصة على لسان الحيوان من أهمّ وأقدم الأجناس الأدبية، على اعتبار الصلة القديمة بين الإنسان والحيوان، وقد نشأت بغرض تهذيب النفوس وتثقيف العقول وتطريب القلوب على أن القصة لدى العرب لم تكن من جوهر الأدب كالشعر والخطابة «ولابد أنه كانت للعرب حكايات يتلهون بها ويسمرون، ولو أنا عددنا مثل هذه الحكايات قصصا لكانت القصة أقدم صورة للأدب في العالم، لأن كل الشعوب الفطرية تسمر على هذا النحو البدائي، ولكن مثل هذه القصص إذا كانت لها دلالة شعبية، فليست لها قيمة فنية حتى تعد جنسا أدبيا، على أن مثال هذه الحكايات لم يتوافر لها من الرواية، ما يجعلنا نحفل بها»[1]

والحقيقة أن القصة هي بذرة لفتنة القول ومتعة السرد والإنسان بطبعه مجبول على الحكي والقصّ.

وأدب الحيوان هو «عبارة عن قصص، يحرك كاتبها حيواناته كما يشاء، وينطقها بما يريد. هدفه من ذلك قول مالا يستطيع قوله على لسانه أو على لسان إنسان آخر لظروف قاهرة تمنعه من إبداء آرائه»[2] وقد اختلفت الآراء وتضاربت حول نشأة هذا الفن الأدبي وتعددت تِبعاً لذلك الخلفيات الفكرية والأدبية.

2. نشأة أدب الحيوان:

ليس من السهل تحديد الموطن الأول لهذه القصص الحيوانية بمعناها العام إذ إنها فطرية، فهي إذن نوع من الأدب قديم العهد بالوجود، بل إنه من أقدم أنواع الأدب، وربما كان بعضه للتسلية وبعضه لتفسير مظاهر الطبيعة.

1- محمود غنيمي: النقد الأدبي الحديث، ص524.

2- محمد التونجي: الآداب المقارنة، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ص175.

يقول ماكس مولر Max Muller أن خرافات "أيسوب" قد وجدت طريقها إلى اليونان في زمن "هيرودوت" أو قبله. ويقول رولنسونRawlinson بأن هجرة الخرافات أولا كانت من الشرق إلى الغرب لا العكس ويستدل على ذلك بأن الحيوانات والطيور التي تقوم بالأدوار المهمة في الخرافات، حيوانات هندية في الأغلب، كالأسد والفيل والطاوس وابن آوى.[1]

ومنهم«من يعد أهل مصر أولى الأمم التي أنطقت الحيوان. كما تدل على ذلك أوراق البردي منذ اثني عشر قرنا قبل الميلاد»[2]

ومما يجدر ذكره أن الخرافات كثيرة في الأدب الهندي والقومي، والعقل الهندوسي قدير عليها، وعبقرية اختراعها لا تنفذ عندهم، بينما نجد أيسوب وحده عند اليونان، تلك القصص الهندية التي جاءت عن مولد "بوذا" في كتاب "جاتاكا" Jataka، وفيها عدد كبير من القصص الحيوانية وفي كتاب الهند القديمة وحضارتها.

ويرى "سير رتشرد برتون" (Sir Richard Burton) أن القصص الوعظية Apologues خرجت من بلاد النيل أو الأرض السوداء Black Land إلى فينيقيا وجوديا وفريجيا وآسيا الصغرى ثم اجتازت البحر في سفينة إلى بلاد اليونان. وهنا وجدت طريقها إلى من عرف الناس بها وهو "أيسوب" ،ثم هجرة أخرى لهذه القصص إلى الشرق حتى وجدت مستقرا في حوض الدجلة والفرات، وقد كان الاتصال بين مصر وبين كل تلك البلاد قائما.

وقد وجد أيضا في الكتابات المسمارية القديمة قصص حيوانية وجد منها أربعة أمثلة في مكتبة آشور بانيبال أول قصة عن أعمال النسر والثعبان، والثانية عن

1- ينظر: عبد الرزاق حميدة: قصص الحيوان في الأدب العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ص33.

2- محمد التونجي: الآداب المقارنة، ص175.

الثعلب والضبع، والثالثة عن محاورة بين حصان وثور والرابعة تشتمل على عجل يتكلم.[1]

والحقيقة أننا لا نريد أن نؤيد رأيا من الآراء السابقة في نسبة أدب الحيوان، ولا أن ننسب الإبداع إلى أمة معينة. بل نرجح أن يكون هذا الجنس الأدبي الرمزي من مبتكرات كثير من الأمم وإن اعتراه بعض التأثر فيما بعد. حتى إن العرب عرفوا هذا الفن قبل أن يعرفوا كليلة ودمنة. فَرُوِيَ عنهم قصص خرافات عن الحيوانات، والجمادات، والنباتات، والأفلاك. وكلها مجتمعة لا تخلو من طابع الحكمة والرمز.[2]

3. كتاب كليلة ودمنة:

هذا الكتاب هندي فارسي عربي. هندي باعتبار أصله، فارسي لأنه اِنتقل إلى ايدي الفرس فترجموه إلى لغتهم وزادوا فيه أبوابا، عربي لأن الترجمة العربية التي أخذت عن الفارسية صارت هي الأصل والمصدر بعد أن ضاعت الترجمة الفارسية.

أما عن سبب تأليف الهنود له ففي مقدمة الكتاب بيانه؛ ذلك أن دبشليم الملك نظر فرأى الملوك من قبله قد وضعوا الكتب التي يذكرون فيها أيامهم وسيرتهم تخليدا لذكرهم، وأحب أن يكون له كتاب على هذا النحو فدعا إليه الحكيم بيدبا وعرض عليه الأمر. وطلب منه أن يضع له كتابا بليغا يستفرغ فيه عقله يكون ظاهره سياسة العامة وتربيتها على طاعة الملك، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية، فهو كتاب يراد به أن يحقق هدفين: أحدهما من شأن العامة حتى إذا قرأته فهمت موقفها من الملك ووجوب طاعتها له، وثانيهما من شأن الملوك حتى إذا طالعوه فهموا منه موقفهم من الرعية، ووجوب حسن السياسة لهم ورعاية مصلحتهم. وبعد تفكير طويل اهتدى بيدبا إلى طريقة جعل بها الكلام على ألسن البهائم والسباع والطير، وصار الحيوان

---

[1]– ينظر: عبد الرزاق حميدة: قصص الحيوان في الأدب العربي، ص34، 36، 37.

[2]– ينظر: محمد التونجي: الآداب المقارنة، ص176.

لهوا وما ينطق به حِكمًا وأدبا، وأقام بيدبا حولاً كاملاً يؤلف الكتاب حتى أتمَّه وحمله إلى الملك، وقد قوبل عمله بالتقدير والإعجاب.[1]

4. أبواب كتاب كليلة ودمنة:

الأبواب التي تحتويها النسخ المختلفة من هذا الكتاب تحتوي على الأبواب الآتية:

1. **المقدمات:** وهي: «مقدمة علي بن الشاه الفارسي». «عرض الكتاب لابن المقفع». «بعثة برزويه إلى بلاد الهند»، «باب برزويه الطبيب»
2. **الأبواب الخمسة الأولى:** بعد استثناء «باب الفحص عن أمر دمنة» وهي الأبواب التي يحتويها الأصل الهندي «بنج تنترا»، «الأسد والثور»، «الحمامة المطوقة»، «البوم والغربان»، «القرد والغيلم»، «الناسك وابن عرس»، ويتبع هذا القسم باب «الفحص عن أمر دمنة» وهو بعد باب «الأسد والثور» ومكمل له، وباب «السائح والصواغ».
3. **والقسم الثالث:** ويحتوي على الأبواب الثلاثة: «الجرذ والسنور»، «الملك والطائر»، «الأسد وابن آوى» .
4. **القسم الرابع:** الأبواب الأخرى، وهي قسمان:

الأبواب التي تتفق عليها النسخ وهي: «إبلاد وإيراخت وشادرم ملك الهنود»، «اللبؤة والأسوار»، «الناسك والضيف»، «ابن الملك وأصحابه».

الأبواب التي توجد في بعض النسخ دون بعض، وهي: «ملك الجرذان»، «مالك الحزين والبطة»، «الحمامة والثعلب ومالك الحزين»[2].

---

[1]– ينظر: طه ندا: الأدب المقارن، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1991، ص146، 147.

2– ينظر: عبد الله بن المقفع: كليلة ودمنة، تحقيق عبد الوهاب عزام وطه حسين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012، ص35.

وقد تأثر الكتاب بالأصل الهندي «بنج تنترا»، وهو أهم مصدر للخرافات التي ظهرت في الأدب العربي.

البانجا تنترا ويسمى المقالات الخمسة أو الكتب الخمسة وهي كتاب واحد يضم خمسة فصول كل فصل منها تحت عنوان خاص:

1) La brouille des amis ، أو التفريق بين الأصدقاء.
2) L'aquisition des amis ، أو اكتساب الأصدقاء.
3) La guerre des corbeaux et des hiboux ، أو حرب البوم
4) La perte de ce qu'on acquis ، أو ضياع الحاجة بعد الظفر بها.
5) Le danger des action irréfléchies ، أو خطر مالا روّية فيه من الأعمال.[1]

5. عبد الله ابن المقفع:

وُلِدَ عبد الله، وكان اِسمه أولا زوربه ويكنى أبا عمرو في مدينة جور وهي بلدة نزهة من أجمل المدن وأعمرها، على عشرين فرسخا من شيراز، وإليها ينسب الورد الجوري الأحمر. وهو مولود في بيت مجوسي، دعته البيئة التي عاش فيها إلى أن يلقي نظرة على المجوسية التي انتقلت إليه بالإلف والعادة، ونظر في الإسلام الذي لقنه في الحداثة بالتربية والعشرة، ودان ابن المقفع بالإسلام عن عقيدة وعلم.

كان تمكن ابن المقفع من الآداب الفارسية على مقدار ضلاعته من العربية جمع بين الأدبين، وفاق الأقران والنظراء بثقافته العربية إلى ما لم يكد يصل إليه أحد من معاصريه، وذكروا أن المقفع كان إلى الشعر صنعه، بيد أنه لم يشغل نفسه به لانصرافه إلى النثر؟ وقال عن نفسه «الذي أرضاه لا يجيئني، والذي يجيئني لا أرضاه» ولم يدان ابن المقفع في الكتابة المرسلة مُدان، فهو فيها المفرد العلم، إلا

1- ينظر: عبد الرزاق حميدة: قصص الحيوان في الأدب العربي، ص114، 115.

بضعة من الرجال، ومنهم سهل بن هارون وعمرو بن مسعدة أتى الدهر على ما أنشأته أقلامهم إلا قليلا، وعلى ذلك أجمع العارفون من القدماء، ولقد سمع أبو العيناء بعض كلام ابن المقفع فقال: كلامه صريح، ولسانه فصيح، وطبعه صحيح، كأن بيانه لؤلؤ منثور ووشي منشور، وروض ممطور، وذكر آخر فقال: ألفاظه معانٍ ومعانيه حكم.

وكان ابن المقفع من أرباب التفاؤل لا التشاؤم، لطيف الأخلاط، وادع النفس، ينظر إلى الأشياء من وجهها الحسن، ولا يفتأ يحمّلها بحسن ظنه، ويغالط نفسه في حقيقة السعادة، فينبعث إلى العمل مرحاً يحب من الملوك عدلهم، وأن يعملوا في خشية الله وخشية الناس ويقول صاحب الصناعتين: «إن من عرف ترتيب المعاني واستعمال الألفاظ على وجوهها في لغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى، تهيأ له من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الأولى. ألا ترى أن عبد الله الكاتب –ابن المقفع– اِستخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي، فحوّلها إلى اللسان العربي، فلا يكمل لصناعة الكلام إلى من يكمل لإصابة المعنى، وتصحيح اللفظ، والمعرفة بوجوه الاستعمال» وقيل إنه تخرّج في البلاغة بخطب علي بن أبي طالب.[1]

6. تأثير كتاب كليلة ودمنة على الآداب الأخرى:

منذ أن اِختلفت الترجمة البهلوية أصبحت الترجمة العربية لابن المقفع هي الأصل الذي نقلت عنه كل الترجمات بعدها. والطريف أن تصبح الترجمة العربية هي الأصل للترجمات الفارسية بعد ضياع الترجمة البهلوية.

فالشاعر الفارسي الرودكي ترجمت له بالفارسية فصاغها نظماً، أيام الأمير نصر بن أحمد الساماني من أمراء الدولة السامانية.

1– ينظر: محمد كرد علي: أمراء البيان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، ج1، 2012، ص99، 101، 102، 104، 121.

وهناك ترجمة أبي المعالي نصر الله محمد بن عبد الحميد الكاتب التي أهداها للسلطان بهرامشاه الغزني، فعرفت هذه الترجمة باسمه "كليلة ودمنة بهرامشاهي" في القرن السادس الهجري. وفي نهاية القرن التاسع الهجري قام حسين واعظ كاشفي بعرض جديد لترجمة أبي المعالي وغيّر وبدّل فيها وأهداها إلى الأمير الشيخ أحمد سهيلي وعرفت باسم أنوار سهيلي.

ويبدو أن الشاعر الفرنسي لافونتين كان قد اطلع على ترجمة فرنسية لهذه الترجمة "انوار سهيلي" فأعجب بها ونسج قصصه على منوالها. ويزداد اNCهتمام الادباء في العالم بالحيوان وهذا شاعر إسباني "خوان رامون خمينيث" (1881-1957) يهتم أيضا بالحيوان. وكتابه «أنا وحماري» نال شهرة واسهة وقد تأثر بموضوعات كليلة ودمنة، وطريقة لافونتين عدد من الادباء في العصر الحديث منهم محمد عثمان جلال الأديب المصري الذي ألّف «العيون اليواقظ في الحكم والأمثال والمواعظ». أما أحمد شوقي فقد مارس هذا اللون باقتدار عظيم إذ كان يختميسير على طريقة كليلة ودمنة في نظمها.[1]

ولم يخلو الشعر العربي –قديمه وحديثه– من الحكايات الأدبية والرمزية على لسان الحيوان. وهذا دليل على انتشار هذا الضرب عند العرب إذ يحكى أن طرفة بن العبد كان مع عمه في سفر وهو صبيّ، فنزلا ماء فذهب طرفة بفخيخ له، فنصبه للقنابر وبقي عامّة يومه منتظرا فلم يصد شيئا، فتحمّلا من ذلك المكان، فرأى القنابر يلقطن ما نُثر من الحب، فقال:

يا لك من قُنبرَةٍ بمَعْمَر خَلاَ لَكِ الجوُّ فَبِيضِي وَاصْفِرِي

وَنَقّرِي مَا شِئْتِ أن تُنَقِّرِي قَدْ رَحَلَ الصيادُ عنك فابْشِرِي

وَرُفِعَ الفَخُّ فمَاذَا تَحْذَرِي لا بُدَّ من صيدك يوماُ فاصْبِرِي

ويعد هذا برهانا شعريا على مخاطبة الشعراء للحيوانات.

1- ينظر: طه ندا: الأدب المقارن، ص152، 153.

وقال لبيد حكمة من حكم الحياة، مستفيدا من عمر النسر:

ولَقَدْ جَرَى لُبد فأدْرَكَ رَكْضَه رَيْبُ الزمان، وكان غيرَ مُثَقَّلِ

لما رأى لبدُ النسورَ تَطَايَرَتْ رَفع القوادم كالفقير الأعْزَلِ

واستمر هذا الأدب الحيواني ينتقل عبر العصور شعرا ونثرا وإبداعا وتقليدا، حتى العصر الحديث. حيث لقي صداه لدى الأدباء شرقاً وغرباً.[1]

وكتب الأدب غزيرة بهذا النمط الأدبي (أدب الحيوان) وفي بردته الرمزية ما يفضح كثيرا من حقيقة الشعوب، ويفصح عن ثقافة عديد من الأمم.

1- محمد التونجي: الآداب المقارنة، ص179.